رحيل

جورج طرابيشي...

خزّان من الطاقة... جعل قلبه في خدمة عقله

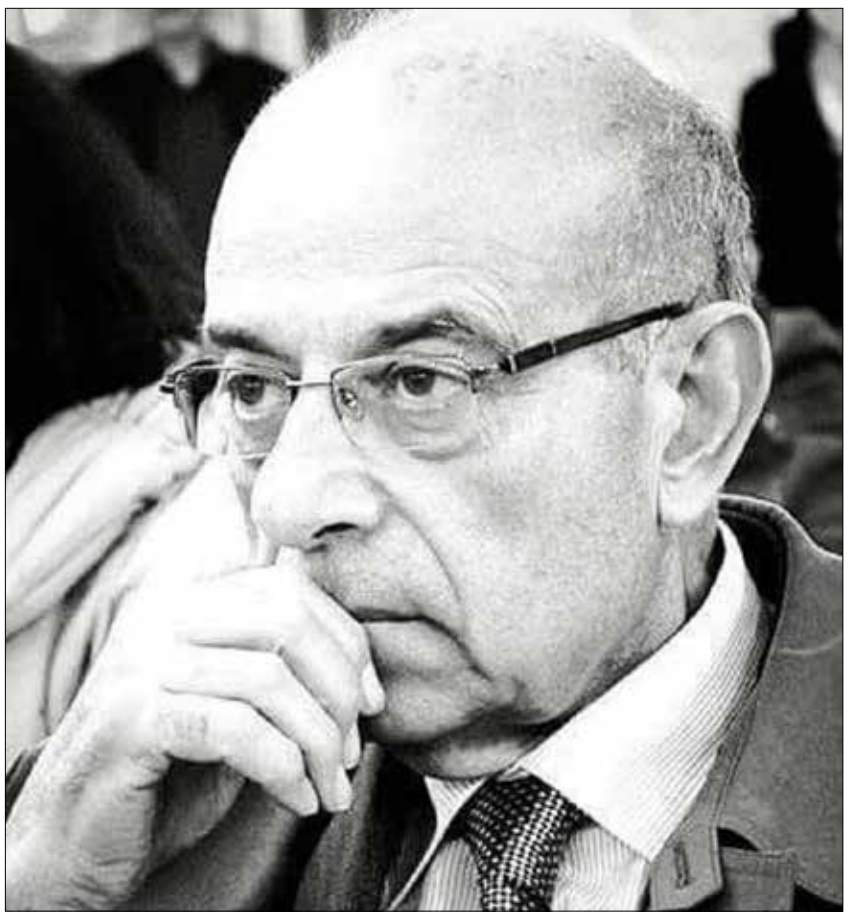

ريتا فرج

في موسوعته «أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين»، يقول خليل أحمد خليل في بطاقة تعريفية موجزة عن جورج طرابيشي (مواليد حلب 1939 – 2016) إنه «خلّف وراءه إرثاً نوعياً كبيراً، لم يتميز به سواه من المكثرين. فهو خزان طاقة، يجعل قلبه في خدمة عقله، وهذا في خدمة حضورنا الجديد في عالم معياره الصراع والتغالب. ربما نُظلمه إذا صنفناه تصنيفاً ثلاثياً: مُعرِّب، ناقد أدبي ومفكر (متفلسف). فهو هؤلاء جميعاً وأكثر بقليل، حيث هذا القليل ينطوي على شخصية جورج طرابيشي الصلبة، الصبورة صبر العقل، لا صبر المنهزمين».

أمضى ابن مدينة حلب وأحد أعمدة العقلانيين العرب عمره باحثاً في اتجاهات عدة بين الترجمة والتأليف والنقد الأدبي للرواية العربية. وضع عدداً كبيراً من المؤلفات، منها «من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث»، و«المعجزة أو سبات العقل في الإسلام»، و«هرطقات» بجزءيه الاثنين...

رسم طرابيشي مسيرته الفكرية في مرحلتين: تبنى الأيديولوجيات الغربية الحديثة من ماركسية إلى قومية، مع قطيعة تامة مع التراث، وبعدها دفعه مساره العقلاني باتجاه اكتشاف التراث. سار في اتجاهات تصاعدية، بدءاً من الفكر القومي والثوري، مروراً بالوجودية والماركسية والتحليل النفسي، وصولاً إلى الإبستمولوجيا المطبقة على التراث العربي الإسلامي. تشكل النزعة النقدية الجذرية عنده منهجاً عقلانياً صارماً رأى أنها الموقف الوحيد الذي يمكن أن يصدر عنه المفكر، ولا سيما في الوضعية العربية الراهنة التي يتجاذبها قطبان: «الرؤية المؤمثلة للماضي والرؤية المؤدلجة للحاضر». وفي رحلته مع الترجمة، بدأ من الفلسفة إلى علم النفس. نقل إلى العربية كتباً عدة؛ منها موسوعة «تاريخ الفلسفة» في سبعة أجزاء، «المدخل إلى علم الجمال: فكرة الجمال (هيغل)... إلى جانب تعريبه غالبية مؤلفات فرويد.

ينهض مشروعه الفكري الضخم على ثلاثة أركان رئيسية: ترجمة أهم الأعمال الغربية في الفلسفة وعلم النفس، ونقد الفكر العربي ـ الإسلامي الحديث والمعاصر، ودراسة مشروع المفكر المغربي الراحل محمد عابد الجابري «نقد العقل العربي» حيث أصدر سلسلته المضادة «نقد نقد العقل العربي» في أجزائها الأربعة.

لم يقف طرابيشي فقط عند كتب الجابري ـ المشروع الذي استغرق منه حوالى ربع قرن ـ بل تجاوزها بالعودة إلى التراث الواسع، لأن الإشكاليات التي صاغها الجابري كانت تتعلق بمستويات ثلاثة أساسية: الفكر الفلسفي اليوناني، الفكر العربي الإسلامي والفكر الغربي الحديث كما يوضح طرابيشي.

منهجياً، يعتمد طرابيشي ـ كما يلفت الباحث المصري سمير أبو زيد في مقالة طويلة عنه ـ «على نوعين أو مستويين للمناهج: الأول، خاص بمعالجة المشكلات المعاصرة لقضايا النهضة والحداثة، والثاني خاص بقضايا التراث ومشروع «نقد نقد العقل العربي». بالنسبة إلى القضايا المعاصرة، يستخدم منهج التحليل النفسي من أجل نقد الواقع الفكري والثقافي العربي (...) إضافة إلى ذلك يعتمد على إعادة تأويل النصوص من خلال فهمها في إطارها التاريخي وسياقها الاجتماعي (...). أما بالنسبة إلى التعامل مع التراث من خلال مشروع «نقد نقد العقل العربي»، فيستخدم المنهج التفكيكي من أجل إعادة النظر في الأسس المعرفية «الإبستيمولوجية» للنص الجابري، ثم منهجي الحفر الأركيولوجي، والنقد التاريخي من أجل الوصول إلى الأصول التراثية للمفاهيم والمقولات الواردة في هذا النص، ثم أخيراً منهج التركيب من أجل إعادة بناء هذه المفاهيم والمقولات في صورتها الصحيحة بناءً على نتائج النقد».

أثار «من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث» سجالاً في الأوساط الثقافية العربية. وقد وظف طرابيشي المفهوم الخلدوني عن النشأة المستأنفة، بما تنطوي عليه من معنى القطيعة والاستمرارية في آن معاً، مسلطاً الضوء على عملية إعادة تأسيس الإسلام القرآني في إسلام حديثي، وذلك طرداً مع التحول الموازي من إسلام الرسالة إلى إسلام التاريخ، ومن إسلام «أم القرى» إلى إسلام الفتوحات. رصد في الكتاب الآليات الداخلية لإقالة العقل في الإسلام، مختتماً مشروعه «نقد نقدِ العقل العربي».

دافع طرابيشي عن العلمانية ورأى أنها القاطرة للخروج من حالة التردي والصراع الطائفي والمذهبي. في إحدى المقابلات التي أجريت معه يقول: «من الأسلحة الفتاكة التي حوربت بها العَلمانية (بفتح العين نسبة إلى العالم) في العالم العربي، وفي العالم الإسلامي معاً القول إن العلمانية اختراع مسيحي، أو استقراء لأوروبا المسيحية التي أوجدت العلمانية حلاً للصراع الكبير الذي امتد أكثر من مئة عام بين الكاثوليك والبروتستانت، وجاء عمل الاستشراق ليؤكد أن العلمانية هي بالفعل من وجهة نظر استشراقية ابتكار مسيحي لا يمكن أن يطبق على التاريخ الإسلامي؛ لأن العلمانية موجودة في النص التأسيسي للمسيحيين الذي هو الإنجيل، ولا وجود لها في النصين التأسيسيين للإسلام اللذين هما القرآن والسنة معاً. ولكن عَلامَ يستند هؤلاء المستشرقون في دعواهم؟ إنهم يستشهدون بآية واحدة وجدت في الإنجيل، وهي قول المسيح (...) «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، واعتبروا أن هذه الجملة الوحيدة في الإنجيل ميزت بين حكم الدنيا وحكم الآخرة، وبين الدولة والدين، وبالتالي أمكن لأوروبا المسيحية أن تنجز العلمانية. ما وجدته في تاريخ الإسلام يعادل، بل يزيد بكثير عن هذه الجملة الإنجيلية المميزة بين الله وقيصر، ففي حديث الرسول؛ والمعروف بحديث تأبير النخل، كان الرسول ماراً بحي من أحياء المدينة، فسمع أزيزاً فاستغربه، فقال: «ما هذا؟» فقالوا: «النخل يؤبرونه» أي يلقحونه، فقال وهو الذي لم تكن له خبرة في الزراعة: «لو لم يفعلوا لصلح»، فأمسكوا عن التلقيح، فجاء النخل شيصاً، أي لم يثمر، فلما ارتدّوا إليه يسألونه، قال قولته المشهورة: «أنتم أعلم بأمور دنياكم (...) هناك حوالى 15 رواية تؤكد على هذا المنحى التمييزي بين الدنيا والآخرة، بين شؤون الدنيا التي يعلمها الناس، وشؤون الآخرة التي هي علم إلهي عند الله، وما أتى به الرسول فهو تركيز على الجانب الأخروي، وهذا في نص الحديث».

«العقل لا يكون عقلاً إلا إذا كان نقدياً» هذا ما أوصانا به جورج طرابيشي. لقد خسرت النخب الثقافية العربية برحيله علماً من أعلامها المبدعين العقلانيين.

داعية الفكر النهضوي في مواجهة «فقهاء الظلام»

خليل صويلح

فيما كان الآخرون يتزاحمون حول موقد الربيع العربي، كفّ جورج طرابيشي، يدّه مبتعداً عن هذه الوليمة المسمومة. أدرك الرجل باكراً، أن السفينة المبحرة بكل بيارقها على وشك الغرق. التفاؤل الذي أبداه مع هبوب الانتفاضات العربية بوصفها ثورات كبرى أنهاه بخشيته من خيبة كبرى، كأن تنزلق هذه الانتفاضات إلى إيديولوجيا دينية. وهو ما ستكشفه الوقائع اللاحقة «فالربيع العربي لم يفتح من أبواب أخرى غير أبواب الجحيم والردّة إلى ما قبل الحداثة المأمولة والغرق من جديد في مستنقع القرون الوسطى الصليبية/ الهلالية»، كما سيشير في مقال أخير له إلى أن ما يحدث في بلاده هو حرب أهليّة محمولة على غزو «هولاكي» جديد، لكن صبيان الميديا ودهماء الثقافة سيرجمونه بحجارتهم، مما اضطره إلى الصمت. مفكر نقدي بمقام جورج طرابيشي لا مكان له وسط لحظة لا عقلانية، كأنه لم يقرع جرس الإنذار مراراً بضرورة استعادة العقل في مواجهة «فقه القتل». هكذا اتكأ على إحدى مقولات شكسبير باعتبارها جداراً استنادياً لأطروحاته العقلانية «ليس الهرطوقي من يحترق بالنار، بل الهرطوقي من يشعل المحرقة». مساجلاته مع أطروحة محمد عابد الجابري حول «نقد العقل العربي» مثال ساطع على رؤيته العميقة للتراث الإسلامي وتقليب التربة بمعول حاد لنبشه وتصحيحه، طوال ربع قرن من النقاش والمراجعة، والإعجاب والتصويب، بإزاحة ما هو مزيّف. امتياز صاحب «اشكاليات العقل العربي» أنه لم يتوقّف في محطة فكرية أو ايديولوجية واحدة ويستأنس بها، فقد شهدت حياته انقلابات متعاقبة، من التعصّب الديني في صباه إلى نبذ المسيحية، ثمّ الالتحاق بالايديولوجيا القومية، مروراً بالوجودية، والماركسية، والتحليل النفسي، وانتهاءً بالليبرالية، ليصل ـ في نهاية المطاف ـ إلى خيمياء معرفية، ورؤية موسوعيّة مركّبة، هي مزيج من هيغل وفرويد وسارتر وماركس، سوف يستثمرها مجتمعةً في سجالاته وأبحاثه التي ستنقله من نقد الرواية إلى نقد التراث العربي الإسلامي، وفي مقدمته الظاهرة الأصولية، بما يمكن أن نسميه الاجتهاد في مجابهة الجهاد. في «هرطقاته»، غاص عميقاً في ضرورة تجذير العلمانية والحداثة والديمقراطية في مختبر عربي صرف، معتبراً عدم وجود وصفة جاهزة لتحقيق الحداثة العربية، ومنبّهاً إلى خطورة الانزلاق إلى الطائفية والمذهبية والإسلاموية التي تعمل على «تهييج العاطفة بدلاً من استفزاز العقل». فقد كان على الدوام «داعية للفكر النهضوي» وذلك بمدّ

> **اعتبر ما يحدث في سوريا حرباً أهليّة محمولة على غزو «هولاكي» جديد**

الخيوط المقطوعة مع النهضويين العرب الأوائل، بقصد مواجهة «فقهاء الظلام»، واستئناف المشروع التنويري عن طريق العلمانية وحدها كعلاج لاختراق الطوائف والانعتاق من ميراثها الثقيل، كما أن شقّ الطريق نحو الديمقراطية يمرّ بـ «صندوق الرأس» لا صندوق الاقتراع. عنوان مثل «من النهضة إلى الردة» يختزل أحوال العقل العربي اليوم، أو ما أطلق عليه هذا المفكّر السوري مصطلح «العقل المستقيل» استجابة للتحديات الكبرى التي يواجهها التفكير في صراعه مع التكفير.

سنأسف كثيراً بإهمال مكتبة جورج طرابيشي الموسوعية بإشراقاتها المتفرّدة التي تربو على نحو 200 كتاب، في حقولٍ مختلفة، كان آخرها «من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث»، لتتفوّق عليها فتاوى الكتب الصفراء، وغبار دعاة الفتنة، وانقلاب بعض العلمانيين القدامى على تاريخهم القديم، لمصلحة دفء حضن الطائفة، وفوائد الزبائنية السياسية في احتلال الواجهة.

رحل المهرطق الأخير حزيناً، وهو يشهد المذبحة العمومية لجغرافيا ممزّقة وتاريخ منهوب، وعقل نائم، وقد تيقّن بأن إخفاق الحداثة التي نافح عنها طويلاً هو محصلة واقعية لغياب الفلاسفة. فاختتم حياته بقوله «إن شللي عن الكتابة، أنا الذي لم أفعل شيئاً آخر في حياتي سوى أن أكتب، هو بمثابة موت، ولكنه يبقى على كل حال موتاً صغيراً على هامش ما قد يكونه الموت الكبير الذي هو موت الوطن».